الفصل الثالث عشر

القربـــان
Sacrifice

ذكرنا منذ قليل أن مفهوم التابو يرتبط إلى حد بعيد ببعض المفاهيم الأساسية أو المعطيات الدينية مثل فكرة القربان، بل إن «إيفانز بريتشارد» ***Evans-Pritchard*** يقول في تعليقه على معالجة «روبرتسون سميث» ***R. Smith*** للديانة البدائية: «يجب أن نلاحظ أنها تفتقر إلى المبادئ، إنها تتكون كلية من الممارسات والشعائر»(1). وقد ترتبط بالأساطير والتي تشرح الشعائر والممارسات، وإذا كان الأمر كذلك فإننا إذا أردنا فهم الدين البدائي لا بد أن نبحث في شعائره - ولما كانت الشعيرة الأساسية في هذه الديانات تقوم على القربان، وطالما كان القربان أمراً شائعاً وعاماً يجب أن نبحث عن أسبابه.

إن فكرة القربان كما يقول «بيتر هاموند» تقوم على أن الشخص قد يتخلى عن أو يدمر شيئاً ذا قيمة من أجل أن يرضي الكائنات العليا أو الأسلاف، وهذا يعزز ويقوي علاقته بهم.

وأياً كان الأمر فإن الأديان جميعها وأياً كانت درجة سموها جعلت القربان

---

(1) نفس الفكرة يرددها برجسون، حيث يقول: إن فكر البدائيين لم يتحرر كثيراً من الغريزة الحيوانية، ومعنى هذا أنه يهدف إلى العمل أكثر مما يهدف إلى التأمل، أي أنه عملياً أكثر منه نظرياً، ومن ثم لا يوجد لديهم تصورات عقلية محددة واضحة كل الوضوح، ولا يوجد لديهم مذاهب دينية، بل ردود أفعال فطرية تعبّر عن نشاطهم النفسي تجاه الأشياء.

obeikandi.com

من أهم شعائرها وطقوسها، فاليهودية مثلاً كما تشير التوراة (سفر اللاويين - الإصحاح الرابع) تقول: «يجب على المخطئ أن يقدم للرب أضحية تكفيراً عن خطيئته، وتكون الأضحية ثوراً يقدم على باب الخيمة المقدسة ويذبح أمام الرب في المكان المخصص لذبح الضحايا، ويجب على المخطئ أن يضع يده على رأس أضحيته ويتولى الراهب التكفير عنه بأن يأخذ قليلاً من الدم ويدخل به الخيمة المقدسة حيث يتلو قليلاً من الصلوات ويغمس إصبعه في الدم سبع مرات، أما لحم الثور وجلده فيقذف بهما إلى مكان طاهر - ليحرقا ويحفظ ترابهما في بقعة مقدسة»[1].

أما تايلور فهو ينظر إلى الأضحية أو القربان ويجعل له نفس الأهمية التي تعادل «الصلاة» ويعالجه بنفس الطريقة، فيقول: «فكما أن الصلاة هي دعاء أو سؤال للإله كما لو كان إنساناً، كذلك يعتبر القربان بمثابة هدية تقدم للإله كما لو كان إنساناً... إن الرجل البدائي لا يهتم بمصير القربان ولكنه يدرك أن الإله سوف يأخذ الهدية بطريقة غامضة على الرغم من أن لحم الضحية مثلاً لم يفقد شيئاً من وزنه، بل لم يطرأ عليه أي تغيير، وقد تلجأ بعض الشعوب البدائية إلى إحراق القربان كوسيلة يضمنون بها توصيل الهدية للإله حيث يتصاعد في هذه الحالة مع الدخان ومع ألسنة اللهب، ولكن سواء أحرق الناس قرابينهم أو تركوها في العراء دون أن يمسوها فإنهم يدركون أن ثمة عنصراً غير مرئيّ أو غير ظاهر في القربان هو الذي يصعد بشكل ما إلى السماء، حيث الإله[2].

والمجتمعات البدائية الوثنية ما زالت تركز على القربان وتعتبره من الشعائر الضرورية والأساسية، ففي «بيرو» ***Peru*** نجد أن عبادة الإله «إنكا» ***Inca*** تحتم على الكاهن أن يمارس طقوسه المتعلقة بالقربان مردداً:

أيها الخالق يا فيراكوتشا *Viracocha* القاهر.

يا فيراكوتشا الموجود أبداً.

---

[1] أحمد الخشاب: دراسات في النظم الاجتماعية، مرجع سابق، ص 177.

[2] انظر: أحمد أبو زيد: تايلور، دار المعارف - القاهرة، مرجع سابق، ص 173.

يا من تبقى على الأرض دون ند أو نظير.

يا من تعطي الحياة... تعطيها لونها ومذاقها.

تقبل هذه الأضحية... أيها الخالق[1].

فإذا تركنا أمريكا اللاتينية إلى إفريقيا لوجدنا أنه في قبائل *LaDagaa*[*] في غانا يتولى الابن الأكبر المبادرة بعبادة روح أبيه المتوفى، حيث تقدم الأضحيات والقرابين خلال الممارسات الشعائرية وفق تقويم زمني محدد أو في مناسبات خاصة، فالمرأة تحمل أو تلد طفلاً ينبغي أن تقدم قرباناً (دجاجة أو نحوها) إلى مقام سلفها الأبدي حتى تضمن لرضيعها سيولة لبن الثدي - وعندما يصيب أحد الأفراد حظاً وفيراً من الثروة كأن يصادف نجاحاً في الصيد فإن الشكر ينبغي أن يقدم لأرواح الأسلاف (جده من ناحية الأب) قرباناً. وإذا فشل في أن يعبر عن شكره على هذا الدعم فربما تعاقبه هذه الأرواح، وقد يصادف حادثاً أليماً أو مرضاً حاداً أو يتعرض أحد أطفاله للموت، ومن هنا فلا بد من تقديم القرابين.

إن التركيز على فكرة الأضحية أو القربان لا تقوم أساساً على فكرة الذنب أكثر من كونها تقوم على فكرة استعادة العلاقة الودية المقدسة والتي تتمثل في علاقة الأسلاف بأبنائهم، هذا هو جوهر معنى القربان عندهم.

يقول «روبرت بارسونز» *R. Parsons* في كتابه (*Religion in an African Society*) إن القربان عند البانتو يستهدف تجديد أو استعادة أو تقوية الرابطة بين المتعبدين وآلهتهم عن طريق وجبة مشتركة، وهي وسيلة للاتصال المقدس بالآلهة حيث الكلمات المباشرة، فالأرواح تنادى بأسمائها، إنها تدرك وترى وتعرف وتسمع وتشارك في تناول الطعام...إلخ. وإن تقديم القرابين يستهدف استعادة العلاقة الحيوية مع عالم الأرواح، ومن دونها فإن الناس لن يشعروا بالأمن والطمأنينة[2]. وعادة ما يصاحب تقديم الأضحية أو القربان نوعاً من التوسل كما يفعل الدنكاويون حين

---

[1] **Paul Radin, op.cit., p. 20.**

[*] درسها *Goody* في بداية الستينيات من القرن الماضي.

[2] **Robert T. Parsons: Religion in an African Society, 1964, p. 181.**

يقدمون القرابين ويتوسلون إلى أسلاف الأب الأعظم *Loui* أو الأسلاف الأجداد *Ayok*. ولا شك أن تقديم مثل هذه القرابين إلى أرواح الآباء ما هو إلا نوع من الترضية في محاولة لاستدرار عطفها وتأييدها لما سوف يقدمون عليه، ودرءاً لغضبها إذا ما تجاهلوا أرواح الآباء والأسلاف[1].

أما في جبال الأنقسنا شرقي السودان فإن القربان يقدم للإله «موسلا» بواسطة الكجور أو الزعيم الروحي في مناسبات كثيرة، كما في حالات الموت أو الإنجاب أو العقم أو ولادة التوأم. ففي حالة تأخر الحمل فإن الزوجة تذهب إلى الكجور، والذي قد يصف لها بدوره بعض أنواع العروق «سامك» بعد تقديم القربان المناسب. وعادة ما يحرصون على دفع المرأة الحامل التي على وشك الولادة إلى أحد الكجرة للحصول على تعويذة، وقد تقدم له هدية تكون عبارة عن شاة أو خنزير حيث ينحر ويقسم مناصفة بين الكجور والمرأة الحامل. وفي حالة ولادة التوأم تُستدعى العجائز على الفور وتُمارس بعض الطقوس التي تقوم أساساً على رقصة (الجالك) وتنحر الذبائح كالخنازير والشياه والماعز والدجاج وما إليها، ويشترط أن يقدم والد الطفل هذه القرابين ثنائية العدد وإلا مات الطفل، ويعتقد أنه في حالة عدم تقديم هذه القرابين فإن الأم قد تمرض أو تموت على الفور.

وفي جنوب كردفان بالسودان تنحر الخنازير والأبقار كنوع من القربان بغية سقوط الأمطار. ففي جبال *Lofofa* يتجه الناس إلى بيت الكجور (صانع المطر)، حيث يقدمون إليه خنزيراً ضخماً، فيصفي الدم في إناء بعد ذبحه، ثم يلمسه بإصبعه ويمسح به عينيه ورقبته ومناطق أخرى من جسمه، وبعدها يأخذ الإناء خارج الكوخ ناثراً الدم في الهواء تجاه السماء مناشداً الإله أن يسقط عليهم المطر. وفي مناطق أخرى ينحرون إلى جانب الخنزير بقرة سوداء وينثرون الدم في الهواء أيضاً.

وعلى هذا يمكن القول:

أولاً- القربان أو الأضحية من العناصر الأساسية في الحياة العقائدية.

ثانياً- إن القربان يشير إلى نوع من التقديم أو العطاء للكائنات العليا المؤثرة

---

[1] د. فاروق إسماعيل: الأنثروبولوجيا الثقافية، ج1، ص 244.

بغية أن تستخدم قواها في طرق مرغوبة لتحقيق أهداف الشخص الذي يقدم القربان، كما رأينا في حالات العقم أو سقوط المطر أو الزواج من فتاة يتيمة الأب...إلخ، ومن ناحية أخرى يستهدف مجرد البرهنة على الولاء أو الإيمان أو الشكر على العطاء.

ثالثاً- إن تصورات الوثني العقلية تجاه القربان تُدرك أن الآلهة أو الأرواح أو الأسلاف لا يحصلون على هذه القرابين بشكلها المادي المحسوس، فإن ما يتركه الوثني من لحوم على قبر السلف المتوفى أو لبن في بيت السلف (كما يحدث في جبال الأنقسنا) يجعلنا ندرك أن الانتقال هنا أساسه نوع من الانتقال الروحي[1].

رابعاً- إن ثمة تفرقة بين القرابين الدورية التي تقدم على فترات زمنية منتظمة، وتلك التي يمكن اعتبارها نوع من التقديم العارض، وكلاهما يتم عن طريق الزعماء الروحيين أو فئة الكجرة، كما رأينا في جبال الأنقسنا أو جبال كارلنجا. إلا أن النوع الأول يستهدف التقديم في مناسبة طقسية كسقوط الأمطار أو بذر الحبوب أو الحصاد. أما الثانية فتلك التي تستهدف التقديم كنوع من القرابين الذاتية كما في حالة المرض أو العقم والرغبة في الإنجاب أو بسبب ارتكاب الخطايا أو للشكر على النعم، حيث يقترن القربان بالدعاء والابتهال للآلهة أو الأرواح الخيرة أو أرواح الأسلاف، أن تحقق لهم العون والخير والنجاح.

خامساً- يمكن القول إن طقوس القرابين ذات طبيعة دينية - اقتصادية، فالدينية تستهدف تقوية العلاقة بين الإنسان والآلهة، والاقتصادية تبدو في دعم الكهنة أو الزعماء الروحيين (فئة الكجرة) الاقتصادي. هذا الوضع يسمح لهم بالحصول على بعض الامتيازات كما نجد في حصولهم على أجزاء مهمة من القربان. هذا في حد ذاته يعطيهم الفرصة في الحصول على كميات مناسبة من الطعام بدعوى أن هذه الأمور يتطلّبها دورهم العقائدي، حيث يتحقق لهم نوع من الاكتفاء الاقتصادي نتيجة تقديم هذه القرابين أو الأضحيات سواء في المناسبات الدورية أو العارضة.

---

[1] د. أحمد أبو زيد: تايلور، مرجع سابق، ص 175 وما بعدها.

سادساً- إن الإخفاق أو عدم تقديم القرابين في مناسبات معينة يؤدي إلى ردود فعل عنيفة، لأن القربان لا ينظر إليه على أنه مجرد تقديم أو عطاء، وإنما ينظر إليه على أنه نوع من شعائر الطهارة، كما نجد في القرابين التي تقدم للحماية من الأمراض أو للبركة أو تجنب السحر أو العين الشريرة، أو درء سوء الحظ أو فشل المحاصيل، كما رأينا في تلك التي تقدم للأسلاف أو الأرواح أو القوى الوسيطة حيث يضمن مقدمي هذه القرابين حماية الأسلاف أو الأرواح لهم.

سابعاً- ترتبط القرابين بنوع من الرمزية، فسكان كارلنجا في جبال تلشي لا يقدمون في الحقيقة للإله (موسلا) سوى دم خنزير أو دم دجاجة، وفي أحيان أخرى يكتفى برفع رأس دجاجة وريشها بعد سلخ جلدها الخارجي على سارية أمام القطية (الكوخ) كنوع من الإشارة بأنهم قدموا القربان ويتركونها هكذا حتى تأكلها الحدأة أو الطيور الجارحة. وفي جبال الأنقسنا يذهبون إلى جبل كامول حيث يقذف بقطعة صغيرة جداً من اللحم في بيت الإله «وي تل» بعد ذبحهم للثور المقدس.

ثامناً- يمكن القول إن طقوس القرابين هذه تلعب دوراً حيوياً في التماسك الاجتماعي القبلي أو الشعائري والذي قد يحقق التجانس بين الأجيال المتعاقبة من خلال الالتزام بأداء هذه الطقوس والشعائر، كما رأينا في جبال كورنجو جنوبي كردفان حيث يتجه التجمع القبلي خلف زعيمهم كاسوللي لتقديم القرابين للإله موسلا عند بداية موسم الزراعة أو الحصاد[1].

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تاثير الإسلام على الوثنية، ص 148-151.